

تقديم الصفة على الموصوف

للدكتور عبدالحق فاضل

الارجح عندي أن هذا قد جاء من تأثير بعض اللغات الاعجمية (I) فان صح ذلك ، فان بعض العرب وأخص منهم أهل العراق وشرقي الخليج العربي ، قد تأثروا بأحدى اللغات الآرية - السنسكريتية - وأخص منها الفارسية لجاورتها لهم ، فقالوا : (طويل نجاد) بدلا من نجاد طويل ، و (رفيع عماد) بدلا من عماد رفيع .. على غرار تأثير بعض المتأدين في جيلنا هذا باللغات الغربية ممن قالوا (تدبير الامر بشكل او بآخر) ، وقالوا (التقدم أكثر فأكثر) ، بل قالوا (انه جيد جدا ليكون صادقا) !

وانما اتهمنا عرب العراق وشرقي الخليج العربي بالتأثر بالفارسية - وبذلك برأنا ضمنا عرب الشام من التأثر في هذا الشأن باللاتينية - لان أهل الشام لا يمكن أن يكونوا المسؤولين عن هذه البدعة ، لسبب بسيط هو أن الصفة في اللاتينية تلي الموصوف كما في العربية وتجاريه افرادا وجمعا وتذكيرا وتانيثا ، وأما في الفارسية فالقاعدة القديمة فيها - كما في أمها السنسكريتية - تقديم الصفة على الموصوف ، ان قول العرب : لذيد الطعام (بدل طعمه لذيد) .. وحسن الطالع (بدل طالعه حسن) .. وبعيد النظر (بدل نظره بعيد) .. وسي الظن (بدل ظنه سيء) .. ظاهرة لا أكاد أجد لها تعليلا الا التأثر بالفرس في

القاعدة في العربية هي أن الصفة تلي الموصوف وتجاريه في مختلف حالاته ولكنني لحظت باستغراب كبير أننا كثيرا ما تقدم الصفة على الموصوف دون أن نشعر ، مخالفين بذلك قواعد اللغة ومنطق الاشياء أيضا.

قالت العرب في المملوح مثلا : انه طويل النجاد رفيع العماد . والمقصود طبعا أن نجاهه طويل وعماده رفيع ، ولكن الصفة هنا سبقت الموصوف واضيفت اليه ، والاضافة تعني الملكية او العائدية ، فقولك (طويل النجاد ورفيع العماد) يشبه من ناحية القواعد والاعراب قولك نجاد السيف وعماد البيت ، فأما أن السيف له نجاد والبيت له عماد فأمر معقول . إلا أنه لا يمكن أن يكون النجاد له طويل (او شيء طويل) لان المقصود من هذا التعبير ان النجاد هو الطويل ، ولا يمكن أن يكون العماد له (شيء) رفيع لانه هو الشيء الرفيع ، واما المعقول ان يكون النجاد (له طول) والعماد (له رفعة) والواقع أن هذا الخلط أهون ما في الامر . فسيأتينا في ثنايا البحث ما هو أدهى .

فمن أين جاء هذا النشياز المنطقي النحوي في لغتنا ، في حين أن القاعدة العامة ، التي تعد من خصائص العربية واخواتها اللغات السامية ، تجري على سنة تقديم الصفة وتأخير الموصوف خلافا للغات الآرية التي تجري القاعدة فيها على عكس ذلك ؟ .

(I) يراجع بحث للكاتب في (تأثير الاعاجم في لغة العرب) .

قولهم : خوش مزه ، ونيك بخت ، ودورين ، وبدگمان .. بنفس المعاني وبنفس ترتيب الالفاظ . (2)

ان اقحام هذه القاعدة الاعجمية في اللغة العربية التي تناقضها تمام المناقضة في بعض القواعد الاساسية قد أحدث من الارتباك والاختلاطات ما لم يخطر يوم اقحامها على بال ، لقد اصبحت هذه (التقليعة) الآرية وسط اللغة السامية أشبه بينضة البط توضع تحت الدجاجة مع بيضها الدجاجة ، فتنبج قرخ بط بين فرايزج دجاج ، واذا بهذا الفرخ الناشز يحتساج الى مداراة خاصة تقلب نظام البيضة في بعض الشؤون عقبا على رأس ، انه يسلك أنا سلوك البط لانه بط ، وآونة سلوك الدجاج لانه يعيش في بيضة الدجاج ، وحينسا سلوكا فوضويا لا اتزان فيه ، لا هو بطي ولا دجاجة ، لانه حائر بين طبيعته البطية وبيئته الدجاجية .

يلاحظ قبل كل شيء ، ان الصفة لا اعراب لها في الفارسية فلا يلحق آخرها تحريك أما في العربية التي لا تعنى اسما من الاعراب فالقاعدة الاساسية أن تكون الصفة تابعة للموصوف اعرابا وتذكيرا وتانيثا ، وافرادا وتثنية وجمعا ، وهي تبقى طبيعية تابعة لسيدها الموصوف ما دامت متأخرة عنه وفق القاعدة العربية ، لا تعاكس غيرها من الكلمات ولا تخرج على منطق ، ولكنهم ما يكادون يقدمونها على الموصوف - تقليدا للاعاجم - حتى يجن جنونها فتخرج على كل ما يصطدم بها من قواعد مرعية وعرف مقبول .. هل أقول مثل المرأة حين قدموها في العصر الحاضر على الرجل تشبها بالفريين .. أم الامثل ألا أقول ذلك بعد أن كنت من المتحمسين في الدفاع عن (حقوق) المرأة ؟

ان أول ما فعلته عند تقديمها - أعني الصفة - هو اعلانها الاستقلال التام عن متبوعها الموصوف ، في الاعراب ، وصارت تتصرف تصرف سائر الاسماء المستقلة ، فهي مرفوعة او منصوبة أو مجرورة ، لا تبعها لموصوفها ، ولكن وفقا لظروفها الخاصة ، أعني وفقا لموقعها من الكلام بصرف النظر عن الموصوف ، ولم

تكتف بالاستقلال عنه بل حكته هو بنوع من التبعية المقيدة فصارت تجره دائما ، أعني تكسر آخره بالاضافة هل اعود ثانية الى التشبيه بالمرأة فأقول ان الصفة كالمرأة التي لا تسمح لزوجها حتى باتباعها الى حيث تذهب ، كما كان الموصوف يفعل بصفته حين كان يتقدمها ، بل تحكم عليه بملازمة البيت دائما .

ثم هي - الصفة - بعد أن استقلت عن موصوفها اعرابا صارت في بعض الاحيان تتبعه تانيثا وتذكيرا في مثل قولنا : فضليات السيدات وفضلا السادة ... ولكنها تنمرد عليه أحيانا أخرى فتبقى متشبثة بزي التذكير مهما كلف الامر ، في مثل قولك : اننا تقدر كريم عاطفته وشريف خصاله ، ومثل قولك : قليل المعرفة كبير الثروة .. فقد ظلت الصفة هنا مذكرة مع موصوفاتها المؤنثات .

وهي أحيانا تتمسك بصيغة المفرد بعناد لا مبرر له حين يكون موصوفها مثنى أو جمعا ، في مثل قولك : أسبيل الخد ، حلو النظرات .

بل انها تتجاهل الموصوف في جميع حالاته أحيانا ، من تذكير وتانيث وافراد وتثنية وجمع ، متشبثة في كل ذلك بمن لا علاقة لها به وهو مالك الموصوف ان كان له مالك ، من ذلك قولك : الوزير غزير العلم ، فالصفة هنا تقطع كل صلة لها بموصوفها العام منذ صارت خيرا للوزير (المبتدأ) .

ونحن نسميها صفة باعتبار ما كان ، أي انها قبل تقديمها على الموصوف كانت صفة بالفعل ، حقيقة وحكما ، أو نحويا وعقليا ، اما عند تقديمها فيتغير اسمها هذا نحويا وتصبح فاعلا أو مفعولا أو مجرورا وغير ذلك من حالات الاسماء في الاعراب .

وهي قد تعود فتصبح صفة أيضا ، ولكن لا لموصوفها الحقيقي الذي تقدمت عليه ، بل لصاحبه كما كان شأنها حين صارت خيرا له في المثال السابق . وهذا من أغرب أطوارها ان لم يكن أغربها طرا ، ذلك بأن موصوفها الجديد قد يكون مغايرا لها ، او مناقضا كل

(2) زيادة في الايضاح : (خاش = طيب ، مزه = الطعم) (نيك = حسن ، بخت = الطالع والحظ) (دور = بعيد ، بين = البصر) ، بد = سيء ، كمان = الظن) ويلاحظ أنه لا توجد في الفارسية أداة تعريف ، فكل اسم يعتبر معرفة ما لم تميزه علامة تنكير .

تتكون لديهم سليقة تناقضها ، فلا يجدون فيها غضاة ولا نشازا ، ومتى كبروا كان استعمالها عندهم هو العادة والسليقة ، ثم هم يخلقونها لذرايرهم تراثا من تعابير سائفة مستحبة ، يؤدى أذواقهم الخروج عليها ، ولو الى الانصح الاقوم .

كذلك العرب الاولون ، لا بد ان أمثال تعابير طويل النجاد ، وشديد البأس ، وأهت الشدقين ، وأحوص العينين ، وأقبح الشنايا ، وذلفاء الانف ، وقب البطور .. قد آذت أسماعهم أول الامر لاصطدامها بسلاقتهم ، ولعلمهم قد سخروا من المتكلمين بها ووصومهم بالرطانة والعجمة ثم استساعتها الاجيال اللاحقة بالرغم من لا عروبتها ولا منطقيتها .

ويروى الجاحظ أنه سمع غلاما أعجميا يقول (سند نعال) يريد (نعالا سنديا) كأنما يروى لنا ملحمة نادرة، دون أن يخطر له على دقة ملاحظته وفقاهته فى العربية أن العرب العرباء تفعل ما هو أسوأ اذ تقول : قليل ماء ، وقصير ذراع ، وطويل باع ، وباطل ثناء ، ولثيم أعمام واخوال .. وما الى ذلك ، وانما قلت ان فعل العرب أسوأ بسبب اللانطقية واللانحوية التى مرت بنا شواهد غير قليلة منها ، بالاضافة الى لا عروبتها .. على حين انها فى اللغات الآرية أصيلة متسقة مع قواعد النحو ومنطق الاشياء .

ويلوح لى من تركيب قول الغلام الاعجمى (سند نعال) أن ترجمته الدقيقة هي (نعال السند) لا كما ترجمها الجاحظ (نعالا سنديا) أعنى أنه تركيب اضافة لا نعت ، فلو قد كثر ان أمثال هذا الغلام الاعجمى بين العرب ، أو كثر العرب المتأثرين بلغته الاصلية السنسكريتية لوجدنا أبناء قحطان وعدنان يقدمون المضاف اليه على المضاف أيضا ، ولو قد سرت عدوى ذلك فعمت العرب أجمعين كما عمتهم عدوى تقديم النعت على المنعوت ، لما وجد الجاحظ فيها ما يستحق التدوين او يلفت النظر .

وأكبر ظنى أن آفة تقديم المضاف اليه أيضا كانت قد أصابت بعض العرب ، ربما أكثر من مرة فى أكثر من مكان ، ولكن عدوها لم تتمكن من الانتشار ولا البقاء ، لانها بالرغم من عدم اصطدامها بالمنطق تحدث من اللبس ما لا يمكن احتمالها معه ، فمعلوم أن الوسيلة الوحيدة للتفريق بين المضاف والمضاف اليه فى العربية

المنافضة ، يتضح هذا فى مثل قولك عن فلان : انه كريم لثيم الاتباع ، معتوه نجيب الولد ، غنى فقير الجار ! ونحن عند اعراب هذه الصفات ملزمون نحويا بأن نقول : (لثيم) صفة (كريم) .. و (نجيب) صفة (معتوه) ... و (فقير) صفة (غنى) !.. خلافا لبيدييات المنطق ، وما كان مثل هذا التناقض الفادح ليقع لو أننا جرينا على القاعدة العربية قلنا : انه كريم أتباعه لثام ، معتوه ولده نجيب ، غنى جاره فقير .

والصفة فى كلتا هاتين الحالتين اللتين تتجاهل فيهما موصوفاتها الحقيقية - أى عند كونها خبرا لمالك موصوفها فى الحالة الاولى أو صفة له فى الحالة الثانية - تكون تابعة لمالك الموصوف هذا كما قلنا فى جميع حالاته ، كالمراة - أيضا - اذا هسى تركت زوجها وتملقت برئيسه ، وعلى هذا يقال : هو (الرئيس مثلا) كثير المال ، وهى (المديرة مثلا) كثيرة المال ... وهما كثيرا المال ، أو كثيرا المال ... وهم كثيرا المال .. وهن كثيرات المال ، والمقصود وصفه فى جميع هذه الحالات الست هو المال ، المذكر المفرد ، ولكن الصفة (كثير) تتجاهله تماما وتتبع أصحاب المال وصاحباته فتفسر لبوسها معهم فى ست حالات مختلفة ، باعتبارهم هم الموصوفين (نحويا) وان لم تكن لاي واحد أو واحدة منهم علاقة بصفة (الكثرة) هذه ، اما المال المقصود وصفه فى جميع الاحوال فهو تابع فى مكانه ، مقيد بالاضافة ، مكسور الخاطر ، أعنى مكسور الآخر .

كل هذا جاء من ارقام قاعدة أعجمية فى لغة عربية يقوم كيانها وطرائق تركيب الكلام فيها على قاعدة معاكسة ، فالصفة عندما قدمت ووضعت فى غير موضعها التقليدى وأخذت مكان موصوفها جابقتها حالات لم تألفها ومازق لم تكن تتعرض لها عندما كانت ملحقة بموصوفها ، فاضطرت الى تحوير كل قاعدة نحوية تقف فى طريقها وسحق كل ضرورة منطقية تهدد وجودها - دفاعا عن نفسها على سنة البقاء .

وان كان قول المحدثين اليوم انه (يتقدم أكثر فأكثر) و (يدبر الامر بشكل او بآخر) ينبسو عن اذواقنا ويؤدى أسماع بعضنا كما يؤذينا اللحن فى الكلام من جر منصوب او رفع مجرور ، فانما هى السليقة ، أى العادة اللغوية اما ناشئة الجيل الذين لم تتعود أذواقهم ما يخالف أمثال هذه التعابير المستحدثة الدخيلة ولم

طريقتهم في الاضافة ، بالضبط كما يكسرون آخر المضاف عند قولهم قصر سلطنة ، كتاب فلسفة ، مدرسة رقص (3) أما في القاعدة الفارسية القديمة فلا يكسر آخر الصفة ولا آخر الموصوف وانما يكون كلاهما ساكنا ، مثل : بزرك مهر ، الذي ترجمت له كليلة ودمنة (بزرك = كبير ، مهر = المحبة أو اللطف) ، و (جوان بخت) ، أي سعيد الطالع (جوان = شاب فتى ، بخت = الحظ) .

وقد نالت العربية من الفارسية في هذا الصدد أكثر مما نالت الفارسية منها لان تبعية الصفة للموصوف ما زالت حتى اليوم هي القاعدة العامة في العربية يجوز الى جانبها تقديم الصفة جوارا ، وقد استعملها العرب في بعض الحالات لا كلها ، حتى كاد الامر يكون سباعيا ، وكثيرا ما يبدو نايبا في غير التعابير المألوفة التي استشهدنا بنماذج منها ، فليس من المألوف مثلا أن يقال عجوز امرأة ، أو شجاع جندي ، بمعنى امرأة عجوز و جندي شجاع كما تقول عتيق خمر وجزيل شكر ، بمعنى خمر عتيقة وشكر جزيل ، أما في الفارسية فقد أصبح الخروج على القاعدة القديمة هو القاعدة في صياغة الكلام الآن ، وأصبحت التعابير المصوغة وفق تلك القاعدة القديمة أشبه بالشواذ من المصطلحات السماعية تخلفت من رواسب العهد القديم ، لا يقاس عليها .

يقع عند احتكاك الشعوب بين اللغات من الاحداث والمعارقات والنكات والحكايات ما يشبه في طرائفه وغرابته بعض الذي يقع بين البشر ، رأينا في هذا البحث اثاره من ذلك ، وآخر هذه الطرائف التي عرضت لنا هو هذا التبادل النادر المثال ، في نقطة بذاتها ، بين العربية وجارتها الفارسية ، الفارسية جعلت العربية تقدم الصفة على الموصوف خلافا لقواعدها النحوية في الجاهلية والعربية جعلت الفارسية تقدم الموصوف على الصفة خلافا لقواعدها النحوية أيضا في الاسلام ...

عبد الحق فاضل

هي تقديم هذا على ذلك ، فاذا عكسنا الوضع انعكس المعنى في كليهما ، كما في مثل قولنا : حارس البيت ، بدل بيت الحارس ... وزوج المرأة ، بدل امرأة الزوج .. وكعبة الرب ، بدل رب الكعبة على حين أن تقديم الصفة على موصوفها - بالرغم من كل ما تقدم بنا ومن تغير عانديتها في الاعراب - لم يغير في ذهن السامع ما قصد اليه المتكلم من كلامه ، فلم تلتبس الصفة بالموصوف ، أعني لم تاخذ مكانه في الذهن ولو انها أخذت مكانه في الاعراب .

ان شعراءنا وادباؤنا يؤثرون على كل حال أن يستعملوا الصفات في زيبها الدخيل الفوضوي هذا ، فهم حين يريدون التفاضح يتكبدون الطريقة العربية الاصولية القوية عزوفا عن استوائها وبساطتها وصحتها ، وجبا بما تغذيهم به الطريقة الاخرى من شذوذ وتمرد ولا معقولة يحسون بها احساسا غامضا لا يفقهون حقيقته ، مثلما يستهونوا في المحبوب بعض مفاتيح غير المفاتيح الوتيرية (الروتينية) في حركاته أو نبراته تفعل فعلها فينا ولا نكتنه سرعا .

ومهما يكن فان هذه البدعة بالرغم مما أحدثت من شغب وفوضى قد أغنت ولا شك أن هذا سيكون مصير التعابير التي أقحمها متادبو اليوم في العربية وما سيقحمونه منها في المستقبل كما فعلوا في كل جيل ، فيؤذون أذواق الجيل السابق ويزيدون الثروة اللغوية للجيل اللاحق .

ومن الغريب حقا ان اللغة العربية حين عادت فائتت في الفارسية بعد الفتح الاسلامي وشمل تأثيرها الواسع العميق حتى بعض قواعد النحو والصرف ، كان من جملة ذلك أنها طعنتها في نفس المكان الذي تلقت طعنتها فيه من جسمها ، أعني أنها فرضت على الفارسية اتباع الطريقة العربية القديمة في تأخير الصفة على موصوفها ، والربط بينهما بوثاق الاضافة أيضا - كأننا أخذنا بالثار ، وكان من نتيجة ذلك أن صار الفرس يقولون اليوم : قصر أبيض كتاب مفيد ، مدوسة ابتدائي مع كسر آخر الموصوف ، على

(3) اخترنا هذه النماذج من الالفاظ العربية لكي يفهما القارئ العربي ، فهي من المفردات العربية المستعملة في الفارسية ، ويلاحظ أن الاضافة في الفارسية تكون كما ذكرنا بكسر آخر المضاف - لا المضاف اليه كما في العربية.